

المدارس الناهضة

”المدارس الجديدة“ و”المدارس الناهضة“ أو ”المدارس المتقدمة“ من الناحية التي يكثر ورودها هذه الأيام في دوائر التعليم الأوروبي والأمريكي. وقد ألف عدد كبير من الكتب في شرح مبادئ وتربيتها كما أصبحت لها مجلات تدعو إلى هذه المبادئ وتوضحها وتنشر أخبارها. وإذا شئنا أن نبين المبادئ التي يقوم عليها التعليم في هذه المدارس لاحتجنا إلى مجلدات. ولذلك نكتفي بذكر الأهم من المبادئ العامة ولا ندخل في التفاصيل.

وأهم هذه المبادئ هو الإيمان بطبيعة الطبيعة البشرية. فإن هناك فلسفتين في التعليم أحدهما تلك التي تقول بسوء الطبيعة البشرية وضرورة العصا للتأديب وبالرقابة والتوجيه والالزام للتلميذ. والآخرى تقول بطبيعة الطبيعة البشرية. وبأن التلميذ يجب أن يكون حراً يدرس ما يشاء ويترك ما يشاء فلا يجبر على دراسة مادة يكرهها ولا يضرب ولا يعاقب بالعنف. هذا هو المبدأ الأول الذي يشمل جميع المدارس ”الجديدة“. وأول من دعا هذه الدعوة هو الطبع جان جاك روسو في كتابه ”أميل“. وفي عصرنا الحاضر نجد ديوي وكليارك في أمريكا ونابل ورومل في بريطانيا، وعدد كبير غير هؤلاء في أوروبا باستثناء الديكتاتوريات التي أغلقت جميع هذه المدارس لأنها تناقض فكرياتها السياسية.

فإذا تركنا هذا المبدأ العام ونظرنا نظرة عاجلة فيما ينطوي عليه المعنى والمغزى من هذه المدارس وجدنا أننا نستطيع بالمقابلة بينها وبين المدارس القائمة التي لا تزال تسير على المناهج والبرامج القديمة أن نبرز كثيراً من فضائلها التي قد تعدد ردائل عند أولئك الذين لا يؤمنون بها. فالتلميذ في هذه المدارس الجديدة لا يتعلم ولكنه يعيش. أو هو سبتعلم عن طريق المعيشة. فإن المدرسة تنظر إليه باعتباره كائناً حياً يجب أن يتمتع بطفولته أو شبابه وهي تزوده بوسائل العيش في المدرسة باعتبار هذه المدرسة مجتمعها الخاص الذي يجب أن يحيا فيه حياة مليئة بالعمل والنشاط. وهو هناك يحيا ليومه وليس لغده. فإن المدارس القديمة تؤكد تأجيل التلميذ للمستقبل. وهي تنصرف إلى هذه الناحية أنصرافاً يكاد يكون كلياً فتهمل الحاضر وتحرم الصبي أو الشاب من أن يعيش في سنه وتلتفت فقط إلى رجولته المستقبلية فتهملها. ولكن المدارس الجديدة تقول إن خير ما يهيئ للمستقبل هو الحاضر، فيجب أن يعيش الصبي وفق السن التي هو فيها. وهذا المبدأ يضطرها إلى أن تجعل الفصول الأولى التي للأطفال عملية يتعلم فيها الطفل أو الصبي المعارف عن طريق العمل.

فالصبي نجار أو حداد أو نساج أو هو يجلد الكتب أو يطلي الأدوات والحدران أو يزرع أو يصنع أى شئ آخر. ومدرسة الأطفال تعد من هذه الناحية مجموعة من الورشات الصغيرة لا يجبر لفل أو صبي على أن يحضر ويتعلم في واحدة منها ، بل هو يترك أبى يلعب ويشبع بل يسأم من اللعب ثم يختار إحدى هذه الورشات ويعمل فيها . والمعلم الذى يرشده يقرن المعارف إلى العمل ولكنه لا يقصر التلميذ على أن يتعلم أكثر مما يحتاج إليه برغبته الصادقة في الوقوف على الصعوبات التى تعترضه في عمله . ولعل مما يستغربه القارئ أن يعرف أن التلميذ في هذه المدارس الجديدة يعاقب بحرمانه من الدرس . فإنه لتعلقه بالورشة أو ما يلحق الورشة من دروس لا يطيق الغياب عنها . وهو يترك لعبه وسلواته لكي يدرس ويتمرن .

وقد ألغت المدارس الجديدة الدرجات في المواد كما ألغت ترتيب التلاميذ وذلك للاعتقاد بأن الدرجات والترتيب كلاهما يحدث مبالاة تبعث على الكراهة بين التلاميذ . والمعلم يمتحن التلاميذ لالكي يبين لهم المتفوق والمتخلف بل لكي يعرف هل الطريقة التى تتبع في تعليمهم مجدية أم لا . فكأنه بامتحانهم إنما يمتحن نفسه لكي يثبت على طريقته أو ينفقها أو يستبدل بها . وبدلاً من المباراة بين تلاميذ الفصل الواحد تبارى الفصول جماعة فيحس التلميذ في الفصل روح التعاون بينه وبين إخوانه ويؤدى عمله كما لو كان عضواً في فريق الكرة يجهد ويتعب لكي تتجح الجماعة وليس لكي ينجح هو وحده . وينشأ بعد ذلك في المجتمع وهو ينظر هذا النظر أى لا يندفع بالرغبة في التفوق والإثراء إلى المزاحمة العنيفة بل يتجه فكره على الدوام إلى التعاون مع المجتمع . فالمدرسة هى المجتمع الصغير الذى يعيش فيه الطفل أو الصبي أو الشاب ، فإذا كان العمل فيها يسير على مبدأ المباراة فإن المجتمع الكبير الذى يعيش فيه الشاب عاملاً كاسباً يسير أيضاً على هذا المبدأ . والتعاون أصلح للمجتمع من المباراة .

ومبدأ آخر تسيير عليه المدارس الجديدة ، هو أن التلميذ يشترك مع المعلم في التعليم . فليس التعليم هنا مهمة المعلم وحده . وإنما هو مهمة التلميذ أيضاً . وبكلمة أخرى يجب أن ننقل الطريقة الجامعية التى يتبعها الطلبة الكبار في الكليات الى المدارس الابتدائية والثانوية . فالتلميذ يبحث ويقرأ بإرشاد المعلم ولكنه لا يلقن المواد ولا تعطى له الملخصات لكي يحفظها عن ظهر قلب . ومن هنا نشأت طريقة "المشروع" التى عنيت بها المدارس الأمر بكية والتى ابتكرها الأستاذ كيكا تريك . فان التلاميذ يدرسون مشكلة من المشكلات المحيطة بهم مثل تفشى الأوبئة أو انتشار الجرائم أو غلاء الأثمان أو كثرة التعطل . والمعلم هنا يرشد الصبيان ولا يسوقهم ، وهو يزور معهم الأماكن التى توضع لهم معنى أو مغزى في الموضوع الذى يدرسونه كما أنه يتعمل بالحكومة أو بالناشرين لكي يطلب الكتب التى تبحث هذا الموضوع .

وهو في غضون الدرس يشرح كل ما يعترضه أو يتصل بموضوعه من صعوبات . فيخرج التلميذ بعد أن يكون قد قضى شهرا في هذا الدرس ، وهو يدرس نظام الحكومة أو المجتمع ويكون في الوقت نفسه قد عرف نظريات ووقف على معارف كثيرة عملية أو رياضية أو اجتماعية . ثم هو بعد ذلك يكون قد تعلم طريقة البحث لأى مسألة أو مشكلة تواجهه في المستقبل . وهنا ميزته على التلميذ الذى تعلم في المدارس القديمة . لأن هذا قد درس مواد معينة فإذا عرضت له مواد أخرى لم يدرسها وقف حيا لها حائرا . كما إذا عرضت له مشكلة لم يعرف كيف يواجهها ويحلها .

والمدارس الجديدة تعنى أكبر العناية بتربية الشخصية . فالتلميذ ليس عندها أسفنجة تقرب المعارف ، ولكنه كائن حي ينمو ويبحث بنفسه عن المعارف ويقصد إليها ويستخدمها لزيادة الرفاهية والسعادة ، وهو يتخرج منها لكي يعيش سائر عمره طالبا يبحث ويتعلم ويثر في المجتمع الذى يعيش فيه ، وذلك لأنه حين ترك المدرسة لم يمتحن الامتحان النهائى الذى يثبت معرفته بطائفة معينة من المواد التى لا يعرف غيرها ، وإنما هو تعلم الطريقة التى يمكنه أن يزيد بها معارفه السابقة أو يتركبها معارف جديدة .

وللتمثيل والخطابة وترتيب الاجتماع شأن كبير في المدارس الجديدة ، لأنها جميعها ترقى الشخصية وتتمها ، كما أنها ترقى الروح الاجتماعى الذى يحتاج إليه عصرنا . ويقول دعاة المبادئ الجديدة إن الحرب إنما هى القمة لروح المباراة التى نوجدتها بين التلاميذ في المدارس الحاضرة ثم تقويها بالمزاحمة للكسب في المجتمع . ولكن إذا نمنا التلميذ على التعاون في الفصل وعلى الحرية في اختيار المواد التى يريد أن يتعلمها فإنه ينشأ على مثل هذه الحاصل في المجتمع يطلب التعاون بين الأفراد ثم بين الأمم . كما أنه لتعلقه بالحرية يرفض الطغيان ويحطم كل محاولة للاستبداد ، وليس عجيبا بعد هذا أن نرى أن جميع الأمم الديكتاتورية مثل روسيا وألمانيا وإيطاليا قد ألفت هذه المدارس الجديدة .

من حكم العرب

إن عجبت لشيء فعجبي لرجال تنمو أجسامهم وتصفر عقولهم .

الأحنف بن قيس